Theories and criticism in Arabic literature
The First Year, Issue 3, Fall 1400
Pp: 19-34
Research Paper
DOR:

Levels of struggle in the literature of resistance

Khadija Abdullah Shahab[1]

Abstract:

He never prevented the workers from seeking knowledge in Jabal Amel during the time of al-Jazzar, and after that, the French occupation, "And if his light faded in some eras that were described as harsh, he would return active and prosperous" in cases of calm, especially in the early eras of Jabal Amel. Science in Jabal Amel had scientific centers since ancient times, that were considered as scientific bases. This research places its hand on the era of the seventh century, when the area knew a wide spread of science, in all its regions, and it was known later as centers of science in Jezzine, Mashghara, and Ainatha, till it reached every southern village and every house in it, and schools were established in each one of them where it was interested, in the first stage, in teaching the ancient religious, jurisprudential and philosophical sciences, and it was repeated till the schools became, in a later stage, interested in teaching science, arithmetic, algebra, medicine, geometry and arabic sciences, such as grammar, morphology, eloquence, and language", and many other sciences. After the spread of chaos, corruption, injustice, and under the fear and pressure during the Ottoman occupation, the scholars of Jabal Amel migrated to Iraq, Najaf and Iran, and did not return until tranquility and safety return back to it, so that they would have a role in the intellectual and cultural movement in it. Jabal Amel knew the missionaries, after Napoleon's campaign on Egypt, and it had several schools in "Tyre, Marjayoun, and Jezzine". The mentioned information is just the tip of what abounded in Jabal Amel of scholars, intellectuals, thinkers, and researchers, that lived in an atmosphere full of injustice, and witnessed it closely, which prompted them, in a later era, to push the scientific movement forward through their schools and their public and private libraries that were open to students. Based on the above, we see that the political history of this area is full of wars, revolutions, and strife with the support of colonialism and usurping states, which was reflected on the social situation that led to the workers' suffering. In this context, we place our hand on the cultural thinking of the workers, and we see that despite the chaos that the region went through, its people were able to advance their literature, social life, and poetry. Literature in Jabal Amel, from the late eleventh century until the end of the thirteenth century AH (18-19 AD), was in a renewal and liberation movement from imitation in thought and action. We start the journey of resistance literature from Jabal Amel, which never calmed down and did not tire in resisting the occupier and the oppressor with weapons at times, and with science and culture at other times. Accordingly, various aspects of literature open up before us, so we share the struggle with it on multiple levels, including the "human struggle movement, cultural, intellectual, political, social, national and civilized. In this context, the research will present two levels of literary struggle, namely: the human level and the social level.

key words: Struggle, resistance literature, Jabal al-Amil.

[1] . PhD in the Lebanese University, Faculty of Arts and Humanities and Al-Maarif University, and one of the editors of the cultural papers magazine of the Journal of Arts and Humanities.

© The Author(s). **Publisher**: Kosar University

التنظيرات والنقد فى الادب العربى
السنة الاولى، العدد ٣، خريف ١٤٠٠
صص ٣٤-١٩

مستويات النِّضال في أدب المقاومة

خديجة عبدالله شهاب[١]

(تاريخ الوصول: ١٤٠٠/٠٢/١٤، تاريخ القبول: ١٤٠٠/٠٦/٢٧)

الملخص

لم يمنع العامليين يومًا من طلب العلم حلّ بمنطقة جبل عامل زمن الجزار، وما بعده الاحتلال الفرنسيّ،، "وإن خبا نوره في بعض الحقبات التي وُصفت بالقاسية، لكنّه كان يعود ناشطًا مزدهرًا "[٢] في حالات الهدوء_خصوصًا_ في العهود الأولى لهذا الجبل. وقد كان للعلم في جبل عامل مراكز علمية منذ حقبات بعيدة، وكانت تعدُّ قواعد علميّة.يضع هذا البحث يده على الحقبة التي تعود إلى القرن السّابع إذ عرفت المنطقة انتشارًا واسعًا للعلم، وفي مناطقه كافّة، وعُرِفت لاحقًا وكمراكز للعلم جزين ومشغرة، وعيناثا، ووصل العلم إلى كلّ قريّة جنوبيّة وإلى كلّ بيت فيه، وأُنشئت المدارس في كل منها، وقد كانت تهتم بالمرحلة الأولى بتدريس العلوم الدّينيّة، والفقهيّة والفلسفيّة القديمة، وكرّت السّبحة، وأصبحت المدارس في مرحلة لاحقة تهتم بتدريس" علم الهيئة والحساب، والجبر والطبّ، والهندسة والعلوم العربيّة، كالنحوّ والصّرف والبيان واللغة"[٣]، وغيرها من العلوم.بعد انتشار الفوضى، والفساد والظلم وبدافع الخوف والضغط زمن الاحتلال العثمانيّ، هاجر علماء جبل عامل، إلى العراق والنجف وإيران، ولم يعودوا إلا بعد عودة الهدوء والأمان إليه، ليكون لهم دورهم في نهضة الحركة الفكرية والثقافيّة فيه.عرف جبل عامل الإرساليات، بعد حملة نابليون على مصر، فكان لها مدارس عدّة في "صور ومرجعيون، وفي جزين"[٤]...، ما تقدّم الحديث به غيض من فيض مما زخر به هذا الجبل من علماء ومثقفين ومفكرين وباحثين، وفي أجواء فيها الكثير من الظلم عاشوا، وعاينوه عن كثب، ما دفعهم في حقبة لاحقة إلى الدّفع بالحركة العلميّة قُدُمًا من خلال مدارسهم ومكتباتهم العامّة والخاصة التي كانت مفتوحة أمام الطلبة.بناء على ما تقدّم نرى أنّ التاريخ السياسيّ لهذه المنطقة حافل بالحروب والثّورات، والفتن بدعم من الاستعمار، والدّول المتغصبة، الأمر الّذي انعكس على الوضع الاجتماعيّ، فعانى العامليون في ضوئه الكثير.نضع يدنا في هذا الإطار على الفكر الثقافيّ للعامليين، فنرى أنّه على الرّغم من الفوضى التي مرّت بها المنطقة، فإنّ اهلها استطاعوا أن ينهضوا بأدبهم وبحياتهن الاجتماعيّة وبشعرهم، وقد كان الأدب في جبل عامل منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر هجري(١٨-١٩م) في حركة تجديد وتحرر من التقليد في الفكر والعمل.ننطلق في رحلة الأدب المقاوم من جبل عامل الذّي لم يهدأ يومًا ولم يكلّ في مقاومة المحتلّ والمغتصب بالسّلاح تارة، وبالعلم والثقافة تارة أخرى. بناء عليه تنفتح أمامنا وجوه متنوعة للأدب، فنشاركه النّضال وفي مستويات متعددة منها " حركة النّضال الإنسانيّ"[٥] والثقافيّ والفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ والقوميّ والحضاريّ، في هذا السّياق سيعرض البحث لمستويين من مستويات النّضال الأدبيّ ألا وهما: المستوى الإنسانيّ والمستوى الاجتماعيّ.

الكلمات المفتاحية: النضال، الادب المقاومه، جبل العامل.

---

[١]- دكتورة في الجامعة اللبنانية، كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة وفي جامعة المعارف، وأحد رئيسي التحرير لمجلة أوراق ثقافية مجلة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

٢ – خديجة، شهاب– زهرة الحرّ شاعرة جبل عامل، دار البنان– ط أولى –١٩٩٩–ص٣٣

٣– محمد جابر، أل صفا– تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة، لا ط، لا ت، ص ٢٧–٢٨.

۴ – الحركة الفكرية، م، س– ص٢٠٠–٢٠١.

٥ – م،ن، ص١٠.

© حق مولف نويسنده **ناشر:** دانشگاه كوثر

١. المقدمة

يبدو من خلال مطالعاتنا أنّ الاستبداد السياسي، الذي حلّ بمنطقة جبل عامل زمن الجزار، وما بعده الاحتلال الفرنسيّ، لم يمنع العامليين يومًا من طلب العلم، "وإن خبا نوره في بعض الحقبات التي وُصفت بالقاسية، لكنّه كان يعود ناشطًا مزدهرًا"(شهاب، ١٣٩٩: ٣٣) في حالات الهدوء_خصوصًا_ في العهود الأولى لهذا الجبل، وعن هذه الحقبة يقول" علي عبد المنعم شعيب":" إنّ النّهضة العلميّة هي نهضة الشّهيد الأول محمد الجزينيّ العاملي سنة ١٣٨٤م، وما يليه، وفترة الشهيد الثاني زين الدّين علي بن أحمد الجبعي العاملي وما سبقه، وتأخر عنه في القرن الثاني عشر الهجري"(مكى، ١٩٦٣: ٢٣) وقد كان للعلم في جبل عامل مراكز علمية منذ حقبات بعيدة، وكانت تعدُّ قواعد علميّة.

لقد عرف جبل عامل في القرن السّابع انتشارًا واسعًا للعلم، وفي مناطقه كافّة، وعُرِفت لاحقًا وكمراكز للعلم جزين ومشغرة، وعيناثا، ووصل العلم إلى كلّ قريّة جنوبيّة وإلى كلّ بيت فيه، وأُنشئت المدارس في كل منها، وقد كانت تهتم بالمرحلة الأولى بتدريس العلوم الدّينيّة، والفقهيّة والفلسفيّة القديمة، وكرّت السّبحة، وأصبحت المدارس في مرحلة لاحقة تهتم بتدريس" علم الهيئة والحساب، والجبر والطبّ، والهندسة والعلوم العربيّة، كالنحوّ والصّرف والبيان واللغة"(أل صفا، د.ت: ٢٨-٢٧)، وغيرها من العلوم.

بعد انتشار الفوضى، والفساد والظلم وبدافع الخوف والضغط زمن الاحتلال العثمانيّ، هاجر علماء جبل عامل، إلى العراق والنجف وإيران، ولم يعودوا إلا بعد عودة الهدوء والأمان إليه، ليكون لهم دورهم في نهضة الحركة الفكرية والثقافيّة فيه.

إلا أنّ هذا الازدهار والنشاط، لم يدم طويلًا، وعاد القهقرى في عهد "الجزار" الّذي ساهم في نكبة علميّة كبيرة، فقد أمر بنقل الكتب والمخطوطات النادرة والثّمينة التي كنت موجودة في مكتبات جبل عامل إلى عكا لحرقها في الأفران" كمكتبة آل خاتون التي لم يبق منها شيء، وكذلك مكتبة آل الصغير، وآل الأمين، وآل الفضل، والحرّ، والسبيتي، والقبيسي، والزّين،... وغيرهم من بيوتات العلم" (الأمين، ١٩٦١: ٤٧/١).

عرف جبل عامل الإرساليات، بعد حملة نابليون على مصر، فكان لها مدارس عدّة في"صور ومرجعيون، وفي جزين"(مكى، ١٩٦٣: ٢٠٠) ...،ما تقدّم الحديث به غيض من فيض مما زخر به هذا الجبل من علماء ومثقفين ومفكرين وباحثين، وفي أجواء فيها الكثير من الظلم عاشوا، وعاينوه عن كثب، ما دفعهم في حقبة لاحقة إلى الدّفع بالحركة العلميّة قُدُمًا من خلال مدارسهم ومكتباتهم العامّة والخاصة التي كانت مفتوحة أمام الطلبة.

بناء على ما تقدّم نرى أنّ التاريخ السياسيّ لهذه المنطقة حافل بالحروب والثّورات، والفتن بدعم من الاستعمار، والدّول المتغصبة، الأمر الّذي انعكس على الوضع الاجتماعيّ، فعانى العامليون في ضوئه الكثير.

نضع يدنا في هذا الإطار على الفكر الثقافيّ للعامليين، فنرى أنّه على الرّغم من الفوضى التي مرّت بها المنطقة، فإنّ اهلها استطاعوا أن ينهضوا بأدبهم وبحياتهن الاجتماعيّة وبشعرهم، وقد كان الأدب في جبل عامل منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر هجري(١٨-١٩م) في حركة تجديد وتحرر من التقليد في الفكر والعمل.

ننطلق في رحلة الأدب المقاوم من جبل عامل الذّي لم يهدأ يومًا ولم يكلّ في مقاومة المحتلّ والمغتصب بالسّلاح تارة، وبالعلم والثقافة تارة أخرى. بناء عليه تنفتح أمامنا وجوه متنوعة للأدب، فنشاركه النّضال وفي مستويات متعددة منها" حركة النّضال الإنسانيّ" (مكى، ١٩٦٣: ١٠) والثقافيّ والفكريّ والسياسيّ والاجتماعيّ والقوميّ والحضاريّ، في هذا السّياق سيعرض البحث لمستويين من مستويات النّضال الأدبيّ ألا وهما: المستوى الإنسانيّ والمستوى الاجتماعيّ.

٢. المستوى الإنسانيّ

حين نتناول الأدب العربي بالدّراسة، يتبادر إلى أذهننا ذلك النشاط الفكريّ الذي يحمل في ذاته مقومات القوّة والصمود، إذ ما من أدب على مرّ العصور لا يحمل هذه الصّفة، لأنّه إن لم يفعل يفقد إحدى أبرز سماته وهي المقاومة والنّضال.

يقاوم هذا الأدب عوامل الانكسار والضعف والانحطاط التي تُلِم بنا في كثير من الأحيان، يستمدّ مقاومته تلك من فكرة الصراع بين الإنسان والكون لأجل التّطور والبقاء، ولأجل أن يبين لنا دوره في حركات التّغيير في المنطقة العربيّة وغيرها من دول العالم إذ إنه يحيط بحياتنا كإحاطة السِوار بالمعصم، ولا يترك شاردة إلا ويسجّلها ويسلط الضوء عليها.هذا إذا كنا سنتناول الأدب منفردًا، فيكف سيكون الحال إذ ارتبط هذا الأدب بصفة المقاوم. هنا يتأكد لنا الدّور الذي يضطلع به ألا وهو" توليد الصّراع في نفس الإنسان إذ خلت منه، وتجديد حسّ المقاومة إذ كان هذا الحسّ قد خبا مع الأيام"(شكرى، د.ت: ١٦)، الأمر الذي يجعله أكثر قوة، وأكثر قدرة على التّحدي والصمود.

يأخذ هذا المستوى على عاتقه، الحالة الوجدانيّة والإنسانيّة، فتطفو إلى الذّاكرة حين يُطرح فعل "المقاومة" على بساط البحث، الحقبة المأساويّة الصّعبة التي عاشتها المنطقة العربيّة في ظل الاحتلال العثمانيّ (١٢٩٩-١٩٢٣)، وقد عاث في المنطقة فسادًا، خصوصًا في أيامه الأخيرة، فرسم حدود الظلم والقسوة، ونال لبنان نصيبه منها.

يشهد التاريخ الحديث الاحتلال البريطانيّ، والإيطالي والألمانيّ والفرنسي للمنطقة نفسها والذي لم يكن أقل قسوة على الأمّة العربية من الاحتلال الذي سبقه، وقد عمل على تقسيم المنطقة ومن ثمَّ تقسيم لبنان إلى دويلات متناحرة من خلال الدّستور الذي تركه، فقسّم السّلطات ما بين المسيحيين والمسلمين وباتت كلّ طائفة تتمسك بحقوق مواطنيها، بدل أن تتمسك بحقوق المواطن اللبنانيّ، بصرف النّظر عن الانتماء الدّيني أو السياسيّ أو

الطائفي تلك التركة الثقيلة التي تركها لنا، وما نزال نعاني من مفاعيلها حتى اليوم، إذ لم تحاول الطبقة السياسيّة التّغيير في ذلك القانون، بما يحفظ لبنان كدولة مستقلة بعيدة من القوانين الجائرة، ولم تسع إلى التّغيير الّذي يبعد من لبنان شبح الحرب الأهلية كلّ عقد أو عقدين من الزّمن، ما أدى بالطبقة الرّافضة لهذه الصيغة أن تغادر إلى غير رجعة، لأنّه حسب وجهة نظرها علينا أن نعمل لوحدة العيش والمصير لشعب لا لطائفة.

بعد ذلك كان اغتصاب فلسطين سنة١٩٤٨م إذ مع الأرض المغتصبة يخلق الأديب العامليّ والعربيّ، قصصًا مأخوذة من قلب المعاناة يضع أمامك حقائق بعيدة من التّنميق والتّزويق، يقدّم المعاناة مضافة إليها الثورة على بعض الواقع المتخاذل عن نصرة الأرض التي تعاني جرّاء احتلالها، وتدنيس ترابها، يفعل كلّ ذلك ليخلق لنا عالم الواقع اللائق بنا، إذ يُحترم وجودنا، تستيقظ طاقاتنا الكامنة في دواخلنا فتتآلف من أجل استعادة الأرض التي سُلِبت منا.

ليس بعيدًا من هذه الاحتلالات اجتياح العدّو الإسرائيليّ للأراضي اللبنانيّة سنة ١٩٨٢م، ما أعاده إلى نقطة الصّفر في تاريخه النّضاليّ، وهنا وجد اللبناني عمومًا، والعامليّ خصوصًا، نفسه أمام الأمر الواقع من جديد وعليه أن يعود للنّضال ثانية لدحر المحتل الجديد، ورأى أنّ زهر الحريّة، لا ينبت إلا بدماء الشّهداء، والتّجربة في ذلك ما تزال ماثلة أمامه. لقد وضعه فعل "المقاومة" أمام المرآة التي تعكس واقعه المرير، إذ سعت المقاومة ضد العدو الإسرائيليّ، إلى أن ترسخ في النّفوس مفاهيم جديدة عن الجهاد في سبيل الأرض والوطن، وتقدم ثقافة مواكبة للحداثة، ثقافة تنطلق من الفكر والوجدان، فوجّهت بعد ذلك ضرباتٍ نوعيةً إلى جسم العدو المغتصب، ولقّنته دروسًا لم يعهدها في مواجهاته السّابقة.

تحتل أرض الجنوب في نفوس أبنائها المكانة السّامية، إذ إنّها تحمل خصائص القداسة المتأتية من مطارح قريبة/بعيدة. فهي **أولاً**: متجسدة في إيمان إنسانها بالحريّة التي تُحَقِق له الكرامة والاستقلال، إذ يعيش فيها سيدًا حرًّا، مستقرًا، بانيًّا، منتجًا مبدعًا مثقفًا، يقدّم الخير، ويحبّ الجمال، ويعشق الحق.

والقداسة **ثانيًا**: نتبينها من الكوامن أو من الموروث الثقافيّ والدّيني لأهل جبل عامل، القداسة هنا تعني الحياة مع الخطر، والذّوبان فيه إلى حدّ التّماهي معه، ومجابهته في كل لحظة من لحظات العمر؛ وهي لا تتحقق في هذا المستوى إلا إذا كانت لدى الإنسان "إرادة قوية في ساحة صامدة"(جمعة، ٢٠١٤: ٨٥)، جاهزة للقضاء على أيّ إحساس بالضعف والجبن.

تسري القداسة من الأرض إلى ساكنها وعاشقها، فيتعلم منها معاني البساطة، والبذل والعطاء، وقد أراد الأديب العاملي أن تمتد على طول الأرض العربيّة التي عانت مصيرًا مشتركًا في مرحلة ما... فمن الجزائر وثورة المليون شهيد، مع جميلة بو حيرد المرأة التي خطت سطورًا جديدة في المقاومة والدّفاع عن الأرض والكرامة، إلى مصر أمّ العروبة، وأرض جمال عبد الناصر، الزّعيم الذي رفض أن يساوم، أو يهادن في سبيل التحرير والسّيادة، أرض الشّاعر الذي يكتب باللهجة المصرية العاميّة "سيد نجم" في دواوينه الشّعبيّة التي جاءت خير دليل على

ذلك، إلى سوريا الأسد الذي عمل على ترسيخ أهمّيّة النّضال في سبيل استعادة الأرض المغتصبة، وعدم التّنازل عن أيّ شبر منّها، وقد "اشتُهر أنّه الرئيس الذي لم يوقع" اتفاقيات الاستسلام والتنازل عن هضبة الجولان المحتلة، مقابل السّلام مع العدو الّذي اغتصب الأرض وانتهك المقدّسات العربيّة إلى العراق... ففلسطين الأرض النّازفة بجروح الحرية ما يقارب ستين عامًا، أرض غسان كنفاني في "عائد إلى حيفا"،" ورجال في الشّمس" وأرض فدوى طوقان، ومحمود درويش في " أحبها،أو لا أُحبها"، وسميح القاسم... وغيرهم. تبدو قداسة الأرض/الوطن هنا في كلّ الأعباء التي حملها هذا الجيل في فكره وفعله وتصرفه، وقد قدّم الهمّ القوميّ والعربيّ على الهمّ الاجتماعيّ، إنّها قداسة النّضال المستمر منذ عقود مرّت.

يعرف المغتصِب أهميّة الثقافة، وكيف أنّها تشدّ من ساعد المقاومة المسلّحة شدًّا لا حدود له، وهي تحصنّها في درب المواجهة، وتُعلي من شأنها فيروح ليحارب الأدباء والكتّاب كما يحارب المقاومون الشّرفاء. في مقابل ذلك، يسعى الأديب إلى أن يكون ذلك المعلّم الذي يعمل على تنمية الوعيّ السياسيّ والاجتماعيّ في أبناء وطنه، يريدهم أقوياء أصحاب السّواعد الصّلبة المؤمنة بالجهاد، التي ستنتج حتمًا جيلًا قادرًا على رفد المقاومة بالسّواعد القويّة، وبالأقلام التي تبني وتشيّد صروح الكرامة والإباء؛ ما يسهّل عملية انتزاع المغتصبٍ من الأرض.

يعي أهل جبل عامل هذه الحقيقة، وما عادت الخُدَع تنطلي عليهم، وراحوا يتعاملون مع العدو على أساسها، فهم مقتنعون تمامًا أنّ عليهم أن يتحملوا الكثير، وفي المستويات كافة، عليهم أن يتحملوا القتل، والتّرويع، والتّشرد، الفزع والخوف، في سبيل البقاء في الأرض والتّشبث بها. فإن تركوا أرضهم، فهي ستذكرهم بالمصير المحتوم الذي وصل إليه الشّعب الفلسطينيّ، إذ إنّهم يعيشون مشردين في أصقاع الأرض، تُهدر حقوقهم وكراماتهم.

يعني التمسك بالأرض بالنسبة إلى أهل جبل عامل استئناف الحياة الطبيعيّة ولو في ظل الخطر، والابتعاد منها يعني الموت، كما أنّها تعني الولادة من جديد وأنّ المخاض عسير، ويربط الأدباء في هذه الحالة بين رحم المرأة ورحم الأرض فيصبح كلاهما رمزًا للحياة. يدخل النصّ السردي معهم، ليقدّم إيحاءً أن العدو يسعى إلى هدم الإرادة في الإنسان المحاصر، والذي يعيش تحت سيطرته، على أمل أن يملّ من محاولة البناء، ويتخلى عن الأرض مكان الإقامة، ومستقر العيش.

يريد المحتل من ابن الأرض أن ييأس من إمكانية الشّعور بالاستقرار، والأمان فيحمله على ترك الأرض والرحيل عنها، ما يسمح له في أن يغرس أقدامه أكثر، ويعزز بقاءه فيها إلى الأبد. يمكننا في هذا السياق، أن نحسب أنّ المقاومة العسكرية وجه من" وجوه المقاومة ومستوى من مستوياتها" (زيتون، ۲۰۱۱: ۷۸)، وقد استطاع النموذج اللبناني أن يحسم الصراع لصالحها، فاستلمت دفّة القيادة، وهي التي تحدد اليوم زمن الصراع ومكانه، والأسلوب الذي يجب أن تردّ فيه.

تغيّرت معادلات كثيرة، وأمسك المقاومون بزمام المبادرة، وسار الأدباء على خطاهم فأخذ كل فعل في أدبهم المقاوم "يأخذ بقدر ما يعطي، يتشكل بالفعل الآخر"، بالقدر نفسه الذي يسهم في تشكيل الأفعال الأخرى.

إنّ الرواية المقاومة تخطّ وهج الحياة، فتشرق الحرية من جبين مقاوم استشهد ليصحح مسار التاريخ الذي أنهكه التزوير، ومن ذاكرة جريح لا يزال ينبض جرحه بحبّ التراب وعشقه، ومن امرأة تنهض بأعباء الأرض فتنبعث بالأمل والإشراق على غدٍ واعد بحرية مطرّزة بخيوط الحياة الجميلة، ومن قلم تلميذ يتدرج على خطى الجهاد والنور، ومن نضال طالب يتحضر للوصول إلى ألق الكون المشع.

إذًا؛ مع ثورة الأديب نشهدُ انقلابًا جذريًّا في العلاقات على المستوى الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثّقافيّ، إذ يبدع بلغته وأسلوبه، كما يبدع المقاوم ببندقيته، والأديب في هذا السّياق" عامل من عمَّال الثورة لكنّه يعمل باللغة" (أدونيس، ١٩٧٨: ١١٦) وبالقلم، ويتميّز بطرحه بين أيدينا صورًا عن التّداخل والتَّلاحم مع الأرض.

لقد خرج أدباء هذه المرحلة من زمن الهزائم، راحوا يتكيّفون مع زمن التّحرير والانتصار، وأخذوا يعملون على تشكيل الوجدان الجماعيّ، ما يشير إلى أنّ تحولًا حياتيًا حصل بالتزامن مع التحوّل الأدبي الذي أصبح معه "الأديب قادرًا على أن يجسّد هذا الواقع ويحاكيه بتغيراته أدبيًّا"(زراقط، ٢٠١٤) ما أثمر أعمالًا نابضةً بالإحساس الوطني والقومي..

يرفض الأحرار منهم أنْ تُغلّ أَيديهم بالسّلاسل، ذلك أنَّهم مجبولون بطبعهم على الحريّة، تلك الحرية التي تُحسب على أنّها منفعة خاصة بهم، تنسحب في ما بعد على منفعة جماعيّة على المستوى الوطني، ويُعد الوعي بمفهوم الحريّة والمقاومة المدخل الرئيس لكلّ أدب يُعنى ويهتم بقضايا الإنسان الاجتماعيّة، خصوصًا ذلك الذي يسعى إلى الدّفاع عن الذّات "الجمعيّة" في مقابل "الآخر العدوانيّ".

نطأ مع الأدب المقاوم أرضًا بكرًا إذ إن هذا الأدب– باستثناء التّجربة الفلسطينيّة–ما يزال في بداياته يتلمس طريقه، والأدباء الذي يسبرون غوره قلّة، على الرّغم من أن التّجربة اللبنانيّة، حافلة بقصصِ مقاومة الاحتلال، ومعاناة أهل الأرض جميعهم من دون تمييز بين طفل أو شاب، شيخ أو صبية، أعزل أو يحمل السّلاح في مواجهة الاحتلال، ونحن إذ نعثر على بعض الرّوايات والقصص إلّا أنّ الميدان ما يزال رحبًا للغوص فيه، ونقل التّجربة كاملة، ما قد يساهم في تغيير الحال الرّاهن، وإعادة تشكيل مجتمع يعرف قيمة الأرض ويؤمن بضرورة "الدّفاع عنها، والتصدّي لعمليّة المصادرة والتّجريف من روح الهوية... واغتصاب الأرض"(فوزى، ٢٠١٤).

و ما يفسّر نجاح المقاومة اللبنانيّة هو الثقافة المقاومة التي لم تهدأ يومًا، وقد هيأت ثقافة وطنيّة داعمة مستمرّة، ووقفت خلفها لتعيد بعث التجدد فيها.

ينعكس هذا العشق في نشاطهم وتعاونهم على إزالة المحتل، ليبنوا بعدها مستقبلهم ومستقبل أولادهم كما يحلو لهم، هم أوفياء للأرض للبشر والحجر والشّجر، ولكلّ حبّة تراب، ولأنّهم كذلك لن يجدوا صعوبة في إعادة بناء ما تهدم، وغرس ما قُطع، وبسرعة مذهلة.

تبني الثقافة المقاومة علاقات وثيقة بين أبناء البلد تتنامى لتصل إلى تحضير الجميع للمواجهة، وتزكية اليقظة والوعي والانتباه، يبحثون عن القوّة لأنّهم يكرهون الضعف، وعن الحرّية لأنّهم يبغضون السّلاسل، ويصلون في انتاج إيمانهم الى أن تصبح المواليد عندهم مسماة بأسماء مستوحاة من واقعهم الذي يعيشون.

يُلحظ في معرض مقاربة نتاج بعض الأدباء اللبنانيين الذين يكتبون أدبًا ملتزمًا مقاومًا لكل أشكال العنف، أنَّ إنتاجهم الأدبيّ يركّز على البعد الإنسانيّ، إذ يعالج حالة إنسانيّة من النّاحية القوميّة أو الاجتماعيّة، وينقلون للقارئ/ المتلقي ما يشاهدونه من حركة الأبطال المناضلين الذين يخوضون الصّراع مع العدو حتى النهاية. ولا بدّ للأدب المقاوم، من أن يركز أكثر ما يركز على البعد الإنسانيّ، من دون أن يغفل البعدين: القومي، والاجتماعي، لأنّه يعالج حالة إنسانيّة، تجعلك تتعاطف معها، فتصبح الأقرب إلى نبض قلبك، وهنا ينقل الأديب هذا الإحساس بالتّعاطف إلى العالم أجمعه وإن اختلفت لغة التخاطب بينه، فالإحساس بالوجع لا يحتاج إلى لغة أكثر من لغة العيون والمشاهدة، ولغة الإحساس بالوجع الإنسانيّ المتنقل في أرجاءالمعمورة. تتأرجح حكاية المقاومة بين مفاهيم عديدة، لكنها في النّهاية تشتبك في خيط واحد يصبّ في صالح الجهاد والتّحرير، ورفع العبء عن صدر الأمّة، وإعادة النّفس إلى شرايينها، وضخّ الدّم في عروقها.

يتناوب أبطال الحكاية السّرد، وتأدية أدوار البطولة، حتى يكتمل المشهد، وتتضح الصورة للمُشَاهِد، فيعجب بما يرى، وينبهر، وقد يصل إلى حدّ أنه يتمنى أن يكون أحد أبطال القصّة أو الرّواية.

إنّه دور الأدب المقاوم، إذ تصبح معه المقاومة نظرة إلى الحياة، فيشارك الأديب أو الشّاعر في حركة النّضال التي قامت، وقاد رايتها أبطال مقاومون، لم يبخلوا يومًا بالرّوح فداء للأرض.

نشير في هذا السّياق إلى أنواع من الأدب المقاوم؛ فهناك الأدب الذي "يقاوم **"قبل"** حدوث المحنة، وهو الذي "يرتفع الى مستوى النّبوءة"(شكرى، د.ت: ١٦)، ويحضرني في هذا السّياق "طواحين بيروت" لتوفيق يوسف عواد وقد صدرت هذه الرّاوية للمرة الأولى العام ١٩٧٢، وقد استشرف الرّوائي فيها حدوث الحرب التي استوطنت لبنان مايزيد على الخمسة عشر عامًا، أيّ قبل انطلاقتها بحوالى ثلاث سنوات، ويستشرف الروائي العربي" عبد الرحمن منيف في روايته" مدن الملح" نضوب الثروة النّفطيّة في الخليج والتي يصارع على استحواذها العالم أجمع. وهناك الأدب الذي يقاوم **"أثناء"** المعركة وبعد الهزيمة، ولا ننسى الأديب المصريّ الرّاحل"نجيب محفوظ" إذ اختلف نتاجه الأدبيّ ما قبل الثورة، عن نتاجه ما بعد الهزيمة والنّكسة، ففي المرحلة الأولى أدان الوضع الاجتماعيّ القائم، ودعا إلى ضرورة أن ينكسر المحتل الإنكليزيّ في رواية "زقاق المدق"، وفي المرحلة الثانيّة أشار إلى بواطن الفساد، و"سجّل جرائم الإقطاع والاستعمار والرأسماليّة"(السابق: ١٣) في رواية" ثرثرة فوق النيل" أمّا الأدب الذي يؤرخ للأزمة بعد انتهائها سواء أكان ذلك بوقت طويل أو قصير، قد لا يبقى منه الكثير في الذّاكرة، أو في أرشيف الصّحافة، فيُكتب ليؤرخ لحقبة معينة، يخرج عندها إلى العامة من دون روح، ويخفّ وهج تأثيره عليهم.

يلتزم هذا الأدب بقضايا الشّعب الإنسانيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، والقوميّة، والثقافيّة، سواء أكان مؤمنًا أو غير مؤمن بكتاب سماويّ، فيغرس مداميك متينة في صروح الأوطان المقاومة، ذلك أنّ ليس فيه "ما يناقض الخلق والتفرّد... وإنّما هو وعيّ واقتناع واختيار حرّ" (السابق: ١٠)، يذهب فيه الملتزم إلى هدف يحدّده لنفسه، يستطيع من خلاله أن يكشف الواقع، مع محاولة جديّة في تغييره، أو قلّ هو سعي حثيث إلى تغيير الخلل فيه.

يبدو جليًّا هنا أنّ الالتزام يتعارض في الذّات البشرية، مع مبدأ الكسل واللامبالاة، والإهمال، وعدم المشاركة في القضايا العامة، الفكريّة والوطنيّة ومنه ينطلق الشّاعر إلى التعبير عمّا يعاني منه المجتمع، ويجد نفسه في ما يجري على أرض الواقع، فيضع نفسه أمام مصيره ومسؤوليته.

يفسح "الالتزام" في المساحة أمام "الإيمان" وهو البطل الدّاعم والمساند له، إذ إنّه عند بعض الشّعراء، ينطلق من الإيمان بنصّ دينيّ يدعو إلى الجهاد، والمقاومة، وإلى طرد العدو عن أرض الوطن، وعدم الاستسلام له، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده....﴾ (الحج: ٧٨). وقد يُسطَّر في نصّ قانونيّ، جاهد في أن يكون رقيبًا أمينًا على تنفيذه، إذ تنصّ المادة العاشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على "استنكار الاستعمار المصحوب بالعنف، والاحتقار والظلم السياسيّ والاقتصاديّ". وسواء أكان الإيمان صادرًا من منشأ دينيّ أو حقوقيّ، فإنّه يخدم حرّية الأوطان، ويدعو المؤمنين بها، إلى ضرورة التزام تطبيقها من أجل خدمة الإنسان المحروم، والإنسانيّة المضطهدة.

يتمظهر على مسرح الأحداث "العشق" الذي ينبثق من قلبٍ يعشق الحياة الحرّة، ويمجّد الكرامة، فيتخذ من الثورة، عشقًا يشعل جنباته، ومشعلًا يهديه إلى غايته المنشودة، وهي تحرير الإنسان من نير العبودية، إذ يرى أنّ "الثورة هي المناخ الأكمل والوسيلة الأكثر جذرية لتحقيق التحرّر(أدونيس، ١٩٧٨: ٣١٤)"، ما يشير إلى أنّ مصائب الشّعوب والأمم لا تتحقق دفعة واحدة، ولا تقرّها معركة واحدة، إنّما هي مرحلة مستمرة من النّضال، تبني نفوسًا، وتعشق الحرية والحياة، وتهدم تاريخًا يغرق في الظلمة والسّوداويّة.

تمدّ هذه المرحلة النّفوس العطشى بالطاقة والإبداع، إذ تبقى نابضة متلألئة، حين تعاني الأوطان من الانتكاسات السياسيّة، أو الاقتصاديّة، أو الثقافيّة، تبقى حيّة حين يكون الوطن منسحقًا، مهزومًا مقموعًا وحين يكون مستعمرًا، ويصبح القارىء المقاوم، أو المجاهد يحسّ آلام الأوطان المعذّبة في سائر الكون، والشّعوب المقهورة والتي تعاني الملمات والمصائب نفسها، إذ يشعر الإنسان بالإنسان الذي يصارع في الحياة، وهكذا تتكامل عناصر المسرح الحكائيّ، فتؤلف لوحةً عظيمة في مستوى بناء الشّعوب، وتأصيل القيم، في حجم معركة تؤسس لحقبة زمنيّة مغايرة للتي سبقت، حقبة زاهية مشرقة، قادت المقاومة فيها المسير إلى باب الحياة.

٣.المستوى الاجتماعيّ

يسعى الأدب المقاوم في هذا السّياق، إلى تغيير جذري في البنى الاجتماعيّة، إذ "تُعمم المقاومة فتصبح رؤيا شاملة للحياة"(شكري، د.ت: ٣٨٥)، تتجسد في مقاومة الغزو الخارجيّ لاحتلال الأرض، وقد أثبتت الأيام أنّها قانون أزليّ، "ونهج بديل في تصوّر التاريخ البشري لمقاومة الظلم(رشيد، ٢٠٠٤: ٩٨) بكل أشكاله وألوانه.

سارت المقاومة بالقلم والأدب، جنبًا إلى جنب مع المقاومة العسكريّة التي "كانت الوجه الذي يدفع الثمن الأغلى على أرض الواقع" (زيتون، ٢٠١٣: ٨٧).

دفعت المرأة الأديبة المقاوِمة بنفسها إلى أن تكون فاعلًا مؤثرًا في غير اتجاه نعثر على تفاصيله في ثنايا قصصها، وبينت لنا أهمية التّربية المقاومة وضرورتها " إذ عُدّت واجبًا مشروعًا، ولا مناص منه من أجل الدّفاع عن الذّات والوطن والانتماء" (جمعة، ٢٠١٤: ١٩٩)، هذا الحرص النّابع من وعيها للموقف على حقيقته، وقد جعل المغْتَصِبُ الأرضَ تئن تحت ضرباته، وقد عايشت والناشئة جزءًا من هذا الاحتلال، وعاينوه عن كثب، وشاهدوا بأُمّ العين فعل ضربات المقاومة العنيفة، وقد أغنتها وأدباء المنطقة فكريًّا وعقديًّا، وأعطتهم حافزًا للانضمام إليها، والدّفاع عن الأرض.

إنّ الدفاع عن الأرض والإنسان، والتّمرد على سلطة الظالم، والدّعوة إلى عصيانه، وعدم النّزول عند رغباته، كلّها جوانب سياسية منشأها التّراث الإسلاميّ، ويرى الأدباء والشّعراء أنّها دعائم أساسيّة في الدّعوة الإسلاميّة لأنّها "دفاع عن الدّين، والشّهادة في سبيلها شهادة من أجله"(ضاهر، ١٩٩٢). بالاستناد إلى ذلك، يمكننا أن نقسّم المواجهة إلى ثلاث محطات زمنيّة، تتشابك عند نقطة واحدة، حتميّة ألا وهي النّصر للمظلوم، والانكسار للظالم.

فمن المواجهة بالتراث يستمد المقاوم ثقته الكبرى بالحريّة، والتحرّر، والانتصار، ذلك أنّ التاريخ الإسلاميّ، يشهد على الكثير من التّراجع العربيّ، والتّخلف الاجتماعيّ الأُمميّ، والغزو الخارجيّ، والاحتلال الظالم، لكن في المقابل، كانت هناك مراحل صعود، ونهضة جماهيريّة، انتهت باستعادة الأرض، والحياة والكرامة ومع المواجهة بالحاضر، فإنّ معظم الشّعوب العربية في المرحلة الرّاهنة تشعر باليأس، وهي تعيش حالة من التقوقع، والبحث عن لقمة الحياة، ومسكن الحرية، وثوب العافية.

ما تزال هذه الشّعوب حبيسة الصدّمة، على إثر الثروة النفّطية التي دهمت المنطقة على حين غفلة، وتأكدت مع الأيام أنّ أمواله لم توظف في الأقانيم المناسبة لا بل أجبرت الحكومات العربيّة شعوبها التي ناضلت وقاومت في حقبة سابقة،على الرّكون إلى زاوية العبوديّة والجهل والأميّة، وعلى ممارسة أفعالٍ لم تتصور يومًا أنّها ستصبح في صلب حياتها. وتحضيرًا للمواجهة في المستقبل، يجب أن يتأمن لشّعوب المنطقة، القيادة العربيّة الحكيمة، التي تعرف كيف توظف الطّاقات في معارك قوميّة عربيّة إسلاميّة ناجحة، تزيل عن كاهلها كابوس العبوديّة، عليها أن تخرج من جلبابها الذي صُنع لها، ذلك أنّها ما تزال إلى الآن تردّد صدى قادة، كانوا خير ناصر للشعوب المقهورة والمظلومة.

يجد الشعراء مكانة لهم في النّضال فتخفق أنفاسهم، فيتركون للقارئ، الوقت الكافي، ليستلذ بطعم ما كتبوا، ويجعلونه يستوطن شعرهم، لا يبارحونه، ويطلبونه دائمًا حين يكونون في استراحة المحارب، وفي أيّ وقت آخر. تشارك الكلمة/ السّلاح، ويسيران معًا في طريق الجهاد؛ إذ يترك الشعراء شيئًا من ذاوتهم في ثنايا أشعارهم.

مع الأدب المقاوم إذًا، علينا أن نخلق عالما متقدّمًا، عبر تشجيع النّاس على مواكبته، وتربيتهم على الافتخار بأدبائهم وشعرائهم المقاومين، الذين يسعون إلى نيل الحرّية الفكرية التي لا تقل أهمية عن الحرية الاجتماعيّة والسياسيّة، غير عابئين بهذه الحياة، إلا بالقضية الأسمى، وهي الأرض وحريتها.

لا بدّ للشعر المقاوم، من أن يركز أكثر ما يركز على الأبعاد المتعددة منها البعد الإنسانيّ والاجتماعيّ، لأنّه يعالج اجتماعيّة تجعلك تتعاطف معها، فتصبح الأقرب إلى نبض قلبك.

يعرّج هنا البحث على المراحل التي مرّت بها الحداثة الشّعريّة العربية، آية ذلك أن الشّعراء في هذه الحقبة، توزعت أشعارهم ما بين شعر موزون مقفى، وشعر عاميّ (الزجل). وإذا خرجنا من التعريف التقليدي للموزون المقفى، فإنّ مجاله "هو الشّعور؛ سواء أثار الشّاعر هذا الشّعور في تجربة ذاتية محضة كشف فيها جانب من جوانب النّفس، أو نفذ من خلال تجربته الذّاتيّة إلى مسائل الكون(هلال، ١٩٧٣: ٣٧٦)". ويمكن من خلاله أن يطرح أمام المتلقي ثنايا أحاسيسه ومشاعره.

مع بدء التغيرات التي طرأت على مجمل حياتنا السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، برز شعراء يدعون إلى الخروج على كل ما هو قديم ومألوف عند من سبقهم، وقد رأوا في الشّعر الحديث من حيث الشّكل، أنّه نسق جديد عليهم أن يحاكوه، "بعد أن أصابهم الملل والسّأم من النّظام التّقليدي للشّعر العربيّ (أنيس، ١٩٧٢: ٣٤٢-٣٤١)"، حاولوا تبديل الثوب القديم للشّعر، إلا أنّهم لم يحرروه كليًّا من نظام الوزن والقافية، ذلك أنّ الكثير منهم لا يزال "يراعي رويًّا معينًّا، ولا يزال يخضع للإيقاع المنظم (عباس، ١٩٧٨: ٢٧)"، إذ لم يستقر دعاة التّجديد على حال، فمنهم من يلتزم القوافي، أو قلّ على الأقل "ينوّع فيها، ومنهم من يجعل شعره مرسلاً رغبة منه في مزيد من الحرية والانطلاق (السابق: ٣٥٣)".

يُستنتج ممّا تقدم، أنّ الشّعر تعبير عمّا يدور في خلد الشّاعر، إذ يريد منه الإبداع والخلق والتأمل، إنّه "الخلق الأدبيّ الموقّع للشيء الجميل، ومردّه إلى الشّعور والذّوق والفكر (هلال، ١٩٧٣: ٣٨٠)"، ما يؤكد فعلًا أنّ الشّعر العربيّ الحديث أدى إلى "خلق متغيرات عدّة، متغيرات لها أذواقها، في توليد رؤى مختلفة جديدة (العيد، ١٩٨٧: ٢١)". يرى الشاعر والناقد أدونيس (١٩٣٠) أنّ هذه التغييرات تتضمن "تعبيرًا مغايرًا، وهي لذلك تخلق القارىء المغاير (أدونيس، ١٩٧٨: ٧٤)"، فيثور عندها إذ تهتز في ذاته القيم الجماليّة التي ورثها، فرفضها، وأصبح أكثر استعدادًا لتقبل ما هو جديد، وبشكل دائم.

مع الأيام، اختلف مفهوم الشّعر، وانقسم الشّعراء بين مؤيد للشّكل، ومؤيد للمضمون، إلاّ أنّ قيمة الشّعر لا تكمن في ما يتضمنه، "وإن طريقة أو كيفيّة القول أكثر أهميّة من الشّيء المقول، وأنّ شعريّة القصيدة، أو

فنيتها هي في بنيتها لا في وظيفتها (السابق: ١٧)"، وهذا ما يبين أن لغة الشّعر قد احتفظت بمقومات إيقاعيّة وفنيّة، يعود الفضل فيها إلى الشّعراء الأفذاذ، وقد تركت فيهم التّجربة الشّعرية، وصْمَتَها العميقة.

تتابع الثورة طريقها، ولا تقف عند محطة أو منعطف، وهي التي تحتاج مع الأيام، إلى وعيّ النّاس بها، ومن ثمّ التمسك بمقوماتها وممارستها، وهنا يظهر دور الشّعر الذي يُكتب في لحظات اندلاعها وفي ذروتها، إذ يمكنه أن يكون أكثر فاعليّة، وأكثر تموضعًا في قلوبنا وعقولنا، فيبقى لأجيالنا تلك الوثيقة الخالدة التي تؤرخ لحقبة النّصر، وتسجل لحظات الصّراع بين الظالم والمظلوم، بين المستعبِد والمستعبَد.

بعد هذه العجالة في عالم الشّعر، يتبادر إلى الذّهن مجموعة من الأسئلة سيحاول البحث الإجابة عنها، ألا وهي: هل استطاعت المقاومة الجنوبيّة أن تغيّر المواقع الفكريّة؟ هل نجح الشّعراء المقاومون في رفد المقاومة المسلّحة بالكلمة القوية المؤثرة الفاعلة؟ وهل كان للشّعر الموزون المقفى المكانة الأسمى والدّور الأكثر فاعليّة؟ وهل سار الشّعر العامي معه جنبًا إلى جنب في فعل الثّورة؟ بالإضافة إلى معالجة أهم الإشكاليّات الاجتماعيّة والوطنيّة والثّقافيّة التي تنجم جراء التّمسك بالثّوابت الوطنيّة، والمسلّمات المتعلقة بالمقاومة والشّعر المقاوم.

إنّ العلاقة على ما يبدو، بين ثورة الكلمات، والثّورة المسلّحة وثيقة جدًا، فالشّاعر يستطيع من خلال كلماته أن يخلق في ذواتنا ثورة معادلة لتلك التي تخلقها السّيوف والبنادق في ساحات القتال والوغى.

فهذا بعض ما قدمه لنا الشّعر الموزون، إذ يضيق البحث عن الإسهاب فيه، وأمّا الزجل، فالحكاية معه تختلف، فهو ليس شعرًا مستحدثًا طارئًا في الشّعر العربيّ، وإنّما مهدت له حقبة الحداثة التي شهدها العصر الأندلسي، وقد كثرت مجالس الطرب واللهو، وتفتحت القرائح عن روائع خلّدها تاريخ الشّعر العربيّ.

بدأ العرب في تلك الحقبة بتنويع قوافيهم، وتجديد أوزانهم، وراحوا يستخدمون المفردات العاميّة في قصائدهم الفصحى، ولم يجدوا حرجًا في ذلك، وقد استحسنوا الأمر، ووجدوا أنّها تخدم الإيقاع الموسيقى للقصيدة. نظموا المزدوجات، والرباعيات... والموشحات، و"الكان كان" وغيرها الكثير، وهم في كلّ ذلك لم يحيدوا عن وحدة البيت والشطر، وظل للإيقاع وما يتصل به من وحدة القافية السلطان الأعلى.

بناء على ما تقدّم، فإنّ الزّجل اللبنانيّ يعود إلى حقبة تزيد على ستمائة عام، إلاّ أنّه لم يزدهر، ولم ينشط لأنّ معظم النّاظمين فيه هم من رجال "الإكليروس"، إذ راحوا يتكلّفون في نظمه، وأدخلوا عليه زخارف لفظيّة في أوزان مضطربة، وفي قوافٍ لا تآلف، ولا انسجام، ولا ترابط بينها، زد على ذلك، ركاكة الأسلوب، والأخذ عن الأقدمين، والتّقليد الأعمى لهم، في المزج بين العاميّة والفصحى.

بقي الحال على ما هو عليه مع الزّجل، حتى مطلع القرن العشرين، إذ إنّه في العقود الخمسة الأولى، ومع انتشار المدارس والمطبوعات ووسائل الإعلام المرئيّ والمسموع، تطور الزّجل اللبناني كثيرًا، وشهد مرحلة من الازدهار لا مثيل لها. بعد الاستقلال، تابع ازدهاره، وانتشر انتشارًا واسعًا وقد تألفت الفرق الزجليّة، وأُنشئت المجلات والجرائد التي تُعنى به، كما بدأت تظهر دواوين للشّعراء بالمئات، وتُقام الحفلات الزّجليّة المتنقلة، وحفلت

بأسماء عدد لا يستهان به ممن قدّموا للشّعر العامي، والأزجال الرّاقيّة التي تسعد الآذان بسماعها، "وارتقى الزجل إرتقاء ظاهرًا... وانتظمت أوزانه، وتعبّدت طرقه، وكثر ناظموه ومتذوقوه" (عكاري، ٢٠٠٥: ٦). ولعل أكثر ما ساعد في انتشاره، أنّه ينظم بلغة العامة، ولهجة كلامهم، ولا يراعي الشّاعر فيه قواعد الإعراب، ولا الصِّيغ الصحيحة للكلمات، أضف إلى ذلك، أنّه الأقرب إلى فكر العّامة من النّاس، وينطق بلسان حالهم في التّعبير عن مشاكلهم وهمومهم اليوميّة.

إنّ الواقع الملتهب بالصّراعات الذي تعيشه المنطقة العربية عمومًا، ولبنان خصوصًا، يؤكد أنّ أدب المقاومة لا يزال ينبض، ويمكن رصد عدد غير قليل من الشّعراء اللبنانيين الذين يُحلِّقون في فضاء الشّعر المقاوم، ومفرداته التي تنبض بالحياة، وهي تعبّر بصدق عن مشاعر صاحبها في ما يخصّ علاقته بوطنه.

تنشط حركة شعرية لبنانيّة في مقاومة المحتل والغاصب، إذ تطالع القارئ كلّ يوم العديد من القصائد التي يكتبها شعراء، أضف إليها القصص والروايات، وكلّها تسعى إلى أن تغيّر وجه الصّراع، وهي في ذلك لا تريد أن تثأر من الإنسان بذاته، إنما من تخاذله في المواقف الصعبة والحرجة، تريد أن تنتقم من الاستعمار العالميّ الذي يحيط بالعالم أجمع، وقد أحسّت أنّه انغرس منذ حقبة غير قليلة في الناس فكريًّا ووجدانيًّا، واستعمرهم. في ضوء هذا الحديث، نرى أنّ الشعراء اللبنانيين لا يفصلون بين العروبة والإسلام، وعدوهما متلازمين، متكاملين، والأمر عند غير المسلمين منهم، تخطّى في أن يكون عقيدة دينيّة، إلى أنّه قيمة أساسيّة في الجهاد ضد المحتل، وما تضمّنه من قيم روحيّة وفكريّة واجتماعيّة وإنسانيّة.

انشق فجر النّصر في العام ٢٠٠٠م، وانسحب العدو الإسرائيليّ من معظم الأراضيّ اللبنانيّة التي احتلها، وذلك بعد صراع مرير ومضنٍ. تتنوع روافد المقاومة وتتعدد، وتسلك طرقًا وعرة حينًا، ومستحيلة حينًا آخر، بهدف بلوغ ما تصبو إليه، مستخدمة لأجل ذلك البندقيّة من جهة، والقلم من جهة أخرى؛ فالبندقيّة تقتل من أجل أن تحمي وطنًا وأمّة، والأقلام تسطر قصائد البطولة والشّهامة، من أجل أن تغذي فكرًا يتخذ من الثقافة المقاومة منحىً له فتكون سندًا للبندقية.

تريد المقاومة– النموذج اللبناني تحديدًا– أن تنتزع اعترافًا كونيًّا، في أن لا سبيل إلى النّهوض من مستنقع العبوديّة إلّا بالتّمرد على المحتل، وقضّ مضجعه، وهي تعمل على تجريد أفكار بعض النّاس البالية، من الأوهام المسيطرة التي لا ترى فائدة من العمل المقاوم أمام جحافل العدو، وأنّ الضعيف لا يمكنه أن يقف أبدًا في وجه القويّ، وأنّ التحرير يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد.

الخلاصة

- يتبين مما تقدم، أنّه مع أدب المقاومة يطغى الجانب الإنسانيّ على أدبهم، إذ يعثر القارئ على موجة من الحزن والشّجن، المنبثق من انسحاق الشّعوب، وامتهان الكرامة العربيّة. وأنّهم استطاعوا أن يشدّوا أواصر الإنسانيّة، ومعاناتها بعضها إلى بعض.
- إنّه الأدب النّابع من قلب الأديب و وجدانه، إذ يحمل في ثناياه وشائج الصدق والأصالة، والحرارة، والاندفاع. فهو صادر من عمق الحدث، ومن قلب المعركة، ما يشير إلى أنّه يصوغ تجربة الثورة الحية الباقية المتجذرة التي ستجددّ عبر العصور.
- وأنّ شعراء الزجل، ارتقوا بلغتهم الشّعرية، لتصل إلى روح الشّعر، وقد ساروا مع الحداثة الشّعرية على المستويات كافة، مستوى التّعبير، والشّكل والموسيقى، وحتى في إطار الرؤية الشّعرية أيضًا، إذ إن بعضهم نظم على بحور الشّعر، كالرجز مثلًا وبقافية واحدة، للأشطر الشّعرية.
- لم ينحصر النّفس المقاوم في الشّعراء الذين ينظمون باللغة الفصيحة، إذ يرى البعض أنّهم قد يتفوقون على شعراء العامية وبالتحديد على شعراء الزجل منهم.
- و ما ظهر أن الزجل، سار جنبًا إلى جنب مع الشعر الفصيح في التعبير عن ويلات الأمّة وقضاياها المصيرية.
- يمكن القول: إنّه مع تجربة التحرير التي حصلت في لبنان أصبح المستحيل ممكنًا، ذلك أنّ الفكر الضعيف الذي اقتنع لحقبة بعجزه وضعفه، يستطيع الآن أن يتكئ على تجربة متميزة، تمدّه بكل مقومات النجاح، والوصول إلى النصر حتمًا.
- إنّه النّصر الذي يؤسس لمرحلة من التّغيير الجذريّ، وهو ينادي أعمق أعماق الوجدان البشريّ العام، إنّه يمثل أرفع مستويات الالتحام، بين النضال القوميّ، والصّراع الاجتماعيّ.

المصادر والمراجع

_____ (٢٠١١)، **في مدار النقد الأدبي**. بيروت: دار الفارابي.

أدونيس (١٩٧٨)، **زمن الشّعر**، ط٢، بيروت: دار العودة.

أل صفا، محمد جابر(د.ت)، **تاريخ جبل عامل**، دار متن اللغة.

الأمين، السيد محسن (١٩٦١)، **خطط جبل عامل**، بيروت: مطبعة الإنصاف.

أنيس، إبراهيم (١٩٧٢)، **موسيقى الشعر**، ط ٤، القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية.

جمعة، حسين (٢٠١٤)، **ثقافة المقاومة إعادة بناء الذّات العربية**، دمشق: دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر.

رشيد، فايز (٢٠٠٤)، **ثقافة المقاومة**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

زراقط، عبد المجيد (٢٠١٤)، **مؤتمر أدب المقاومة ومواجهة الحرب الناعمة**، الأونيسكو بيروت، جلسة عُقدت في ١٩-٥-٢٠١٤ م.

زيتون، علي مهدي (٢٠١٣)، **الشعر كتاب الثقافة**، بيروت: دار العودة.

شكري، غالي (د.ت)، **أدب المقاومة**، دار المعارف بمصر.

شهاب، خديجة (١٩٩٩)، **زهرة الحرّ شاعرة جبل عامل**، دار البنان.

ضاهر، مسعود (١٩٩٢)، الثقافة المقاومة دراسة في المنهج، **مجلة الآداب**، عدد ٩و١٠، أيلول.

عباس، إحسان (١٩٧٨)، **اتجاهات الشعر العربي المعاصر**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

عكاري، أنطوان (٢٠٠٥)، **الأشعار الشّعبية اللبنانيّة دراسة بعض نماذجها الحلوة**، طرابلس: جروس بروس.

العيد، يمنى (١٩٨٧)، **في القول الشّعري**، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

فوزي، جيهان (٢٠١٤)، «أدب المقاومة الفلسطيني ومكانة الأرض في الأدب»، **المصري اليوم** *http://www.almasryalyoum.com*.٢٠١٤/٥/١٧

القرآن الكريم

مكّي، محمد كاظم (١٩٦٣)، **الحركة الفكريّة والأدبية في جبل عامل**، بيروت: دار الأندلس.

هلال، محمد غنيمي (١٩٧٣)، **النّقد الأدبيّ الحديث**، بيروت: دار العودة.